سُورَةُ سَبَأ

(٢)

الدكتور محمود البستاني

اتّضح ـ في القسم الأوّل ـ مدىٰ جماليّة العمارة القصصيّة التي قامت علىٰ فكرة «معطيات اللّه تعالىٰ» و «الشكر عليها». حيث بدأت بطرح «مجمل» للموضوع ثمّ «فصّلت» الحديث عنه، كما اتّضحت جماليّتها من حيث صلتها بعمارة السورة ككلّ إذ وظّفت الأُقصوصة لإنارة «مفهوم الشكر» الذي تركّز عليه «سورة سبأ» حيث إنّها تمحورت حول طرح مفهوم «الحمد للّه في الحياة الأُخرويّة».

التحرير

قال اللّه تعالىٰ : ﴿ولسُليمانَ الرّيحَ، غُدُوُّها شَهرٌ ورَواحُها شهرٌ، وأسَلْنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ، ومِنَ الجنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يديهِ بإذْنِ ربِّهِ، ومَنْ يَزِغْ منهُمْ عن أمرِنا نُذِقْهُ من عذابِ السَّعير يَعملون له ما يشاءُ من مَحاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ كالْجوَابِ، وقُدُورٍ راسياتٍ، اْعملُوا آلَ داوُدَ شُكْراً، وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكُورُ فلمّا قَضَيْنا عليه المَوْتَ، ما دَلَّهُمْ علىٰ موتِهِ إلّا دابَّةُ الأرضِ تأكُلُ مِنْسَأَتَهُ، فلما خَرَّ تبيّنتِ الجِنُّ أنْ لو كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ما لَبِثُوا في العذابِ المُهين﴾.

هذا المقطع من سورة سبأ يتضمّن الاقصوصة الثانية من الأقاصيص التي وُظِّفت فنيّاً لانارة أفكار السورة الكريمة التي تحوم علىٰ مفهوم (الشكر) للّه تعالىٰ علىٰ معطياته...

والواقع، أن هذه الاقصوصة (أُقصوصة سليمان) تظل متداخلة مع

الاقصوصة الاولىٰ في السورة، ونعني بها أُقصوصة داود التي أشارت إلىٰ أنّ اللّه تعالىٰ قد آتىٰ داود فضلاً، حيث سخّر الجبال والطير في مشاركتها أو ترجيعها لتسبيح داود، وحيث ألان له الحديد...

وها هو النص يشير بدوره إلىٰ الفضل الذي آتاه اللّه تعالىٰ سليمانَ (وهو ابن داود ووارثه)، حيث سخّر له الريح، وأسال له عين القطر، وسخّر لهُ الجنّ ليعمل له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجوابي وقدور راسيات...

والسّر الفنّي لتداخُلِ هاتين الأُقصوصتين، يتمثّل في كونهما يتناولان بطلين نَسَبِيَّين (أباً وابناً)، وفي خضوعهما لظاهرة (الفضل) الذي آتاهما اللّه تعالىٰ، وفي خضوعهما لطلبٍ من اللّه تعالىٰ مشتركٍ بينهما هو قوله تعالىٰ ـ تعقيباً علىٰ قصة سليمان : ﴿إعملوا آل داود شكراً﴾، فمجرد كون النص قد أسهمَ (آل داود) في مطالبته بان يشكروا معطياته، يُفصح عن تداخل الاقصوصتين : ما دام داود وسليمان ينتسبان إلىٰ البيت المذكور (آل داود)...

والآن : إذا تجاوزنا هذا الجانب البنائي للاقصوصتين، واتّجهنا إلىٰ البناء الفني لاقصوصة سليمان وما يتضمّنه من موضوعات، نجد أنّ (الفضل) الذي آتاه اللّه سليمانَ يتمثّل في وسائل وأدوات العمل المختلفة، وفي قوىً وعناصر غير بشرية أيضاً...

وينبغي ألّا يغيب عن أذهاننا (تجانس) المعطيات التي وهبها اللّه تعالىٰ لكلٍ من سليمان وداود من جانب، وتميّزها لكل منهما من جانب آخر... ويتمثل (التجانس) في تنويع القوىٰ المُسخّرة لهما وتماثلها لديهما.. فقد كانتْ «الطير» واحدةً من عناصر التسخير لداود،... يقابلها «الجن» الذي سُخِّر لسليمان، حيث انّ كليهما ينتسبان إلىٰ عنصر يمتلك وعياً وارادةً وروحاً،... وكانت «الجبال» عنصراً مسخَّراً لداود أيضاً (وهو عنصر جامد) إلّا أنَّ اللّه تعالىٰ مَنَحَهُ قابلية

التـرجيع لتسبيح داود،... ويقابِلُـهُ «الريـح» التي سُخِّرتْ لسليمان، وهي تنتسب إلىٰ نفس العنصر الجامـد، المماثل للجبال... وكان «الحديد» ـ وهو وسيلة مادية ـ قد أُلين لـداود، يقابله «القـطر» أو النحاس الذي أُسِيل لسليمان.. حيث ان كليهما ينتسبان إلىٰ عنصر مـادي، وحيث ان كليهما سُخِّر من خـلال (تليين) الاول، و(إسـالة) الآخـر...

وهكذا نجد ان اقصوصة سليمان (من حيث بناء عمارتها المرتبطة بالموضوعات) قد تجانست مع اقصوصة داود، في انتخاب الموضوعات، وفي طبيعة تسخير القوىٰ والعناصر المختلفة، فيما يكشف مثل هذا التجانس عن جمالية فائقة من حيث (التقابل) بين أبنية تلكم الموضوعات،... فضلاً عن كشفه عن تلاحم المبنىٰ الهندسي العام للقصتين فيما قلنا انهما (متداخلتان) أي أنهما (قصة داخل قصة)، بحيث جاء تسخير القوىٰ والعناصر متجانساً مع هويّة البطلين النَسَبيّة (من حيث كون أحدهما أباً والآخر إبناً)،... فضلاً عن ارتباط القصّتين بهياكل السورة الكريمة، حيث وُظِّفتا لإنارة «فكرة الشكر» التي تحوم عليها السورة، وهو ما يفصح عن مدىٰ إحكام العمارة الفنيّة للنصّ (من حيث علاقة أجزائها : بعضها بالآخر) بالنحو الذي تقدّم الحديث عنه.

* * *

قال اللّه تعالىٰ : ﴿فلمّا قَضَيْنا عليهِ الموتَ، ما دَلَّهُمْ علىٰ موتهِ إلّا دابّةُ الأرضِ تأكُلُ مِنْسَأتَهُ، فلمّا خَرَّ تبيّنتِ الجنُّ أنْ لو كانوا يعلمُونَ الغيبَ ما لَبِثُوا في العذابِ المُهين﴾.

بهذا القسم من أُقصوصة سليمان ينتهي رسمُ شخصيّته، حيث تناولت الأُقصوصة جانبين من شخصيّته، هما : حياته وموته... أمّا حياته فقد كان تسخير الجنّ أبرز الحوادث التي رسمها القرآن الكريم في هذا الميدان،... لقد سخّر اللّه تعالىٰ لسليمان الريح، وأسال له عين القطر،... إلّا أنّ الأُقصوصة مرّت عابرةً حيال هذين

الحدَثين، وركّزت على حادثةٍ ثالثةٍ هي : تسخير الجنّ، حيث فَصَّلَت الحديث عنها فقالت : ﴿ومِن الجنّ مَنْ يعْمَلْ بين يديهِ بإذْنِ ربِّهِ، ومَن يزِغْ منهُمْ عن أمرِنا نُذِقْهُ من عذابِ السَّعير يَعمَلُون له ما يشاءُ من مَحاريبَ وتَماثيلَ وجِفانٍ كالجَوابِ وقُدُورٍ راسيات...﴾.

تُرى : ما هي الأسرار الفنّية وراء هذا الرسم الذي يتحدّث عن قوى الجنّ، وعن كونها مهدَّدَةً بالعقاب في حالة تمرّد أحدهم على أوامر اللّه تعالى بالنسبة إلى خدمتهم سليمان عليه السلام ؟

إنّنا ما دمنا نُعنى بعمارة السورة القرآنيّة الكريمة، حينئذٍ يتعيّن علينا إبراز الصلة العضويّة بين هذا القسم من الأُقصوصة (أي : تسخير الجنّ وتهديدهم بالعذاب الشديد) وبين القسم الأخير من الأُقصوصة، فيما يتناول موت سليمان وعلاقة (الجنّ) بذلك،...

تقول الأُقصوصة عن موت سليمان ﴿فلمّا خرَّ تبيّنتِ الجِنُّ أنْ لو كانوا يَعلمون الغيبَ ما لَبِثُوا في العَذابِ المُهين﴾...

إنّ المتلقّي (القاريء أو السامع) يمكنه أن يستخلص جملةً من الأسرار الفنيّة الكامنة وراء هذا الرسم لشخوص الجنّ... من ذلك :

أنّ (الجنّ) يمثّلون قوىً غير مرئيّة تقترن بنظرات خاصّة من قِبَل الإنس حيالَهم، بخاصّةٍ فيما يتّصل بإمكاناتهم التي لا تتاح للبشر العادي.

ومنها : علمهم ببعض الغيب... طبيعيّاً : حينما يسخّر اللّه تعالى هذا العنصر غير البشري لسليمان، فإنّه تعالى يستهدف ـ كما نحتمل فنّيّاً ـ إبراز الفكرة القائلة بأنّ (الشكر) على نِعَم اللّه تعالى (وهي الفكرة التي تحوم عليها سورة سبأ) يستتلي مزيداً من المعطيات التي لا حدود لها، وفي مقدّمتها : تسخير القوى غير البشريّة للشخصيّة العباديّة الحقّة...

أكثر من ذلك، إنّ هذا التسخير قد اقترن بتهديدٍ من قبل اللّه تعالى بحيث

حذّر تعالىٰ هذه القوىٰ من عذاب السعير : في حالة عدم التزامهم بأوامر الخدمة،... وهذا يعني (من الزاوية الفنّيّة) انّ النصّ قد استهدف دلالةً جديدة من وراء رسمه لشخوص الجنّ، هي : إنّ الجنّ نمطان،... نمطٌ ملتزم ونمطٌ متمرّد أو لا أقلّ نمطٌ يتثاقل من الإلتزام بالأوامر، أو يتمنّىٰ بأن يُعفىٰ من مثل هذه المهمّة...

هذه الدلالات يمكن استخلاصها من خلال تهديدهم بعذاب السعير، ومن خلال ردود فعلهم حيال موت سليمان عليه السلام. فالأُقصوصة تنقل لنا انّ سليمان عند موته (وهذا ما سنتحدّث عنه لاحقاً) كان قد اتّكأ علىٰ عصاه، وانّ إحدىٰ دوابّ الأرض (وهي : الأرضة) قد أكلت عصاه، فخرّ علىٰ الأرض بعد سقوطها، وعلم الآخرون حينئذٍ بموته مع أنّه عليه السلام ـ كما تقول النصوص المفسّرة ـ قد ظلّ سنةً كاملةً واقفاً علىٰ عصاه بعد موته...

والمهمّ، أنّ (الجنّ) كانوا من جملة العناصر التي لم تحط خبراً بوفاة سليمان إلّا بعد سقوط العصا،... لذلك رَسَمهم النصّ علىٰ هذا النحو من ردّ الفعل : ﴿فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا في العذاب المهين﴾...

لقد صَوَّرهُم النصّ وهم يحسبون أنّ خدمتهم لسليمان عليه السلام هي ﴿عذاب مهين﴾، وهذا يكشف ـ كما قلنا ـ عن رغبتهم ـ لا أقلّ ـ في التخلّص من عذاب الخدمة...

إذن : إنّ رسمَ الجنّ ـ في بعض نماذجهم ـ قد استُهدِفَ منه إبراز شخصياتهم التي يمكن أن تتمرّد حيناً أو يمكن أن تتثاقل من الخدمة حيناً آخر،... لذلك، نجد أنّ القسم الأوّل من الأُقصوصة قد ركّز علىٰ إمكان تمرّدهم، فهدّدهم اللّه تعالىٰ بعذاب السعير، وإنّ القسم الأخير من الأُقصوصة قد ركّز علىٰ إمكان تثاقلهم، فرَسَمهم وهم يأسَفُون علىٰ مكوثهم سنةً في خدمة سليمان، مع أنّه قد توفّي..

وهذا الربط بين القسم الأوّل من الأُقصوصة (تهديدهم بالعذاب) وبين

القسم الأخير، يكشف عن إحكام المبنىٰ الهندسي للأُقصوصة، بالنحو الذي أوضحناه.

* * *

قال اللّه تعالىٰ: ﴿لقد كان لِسَبأٍ في مَسْكَنِهِمْ آيةٌ جنّتانِ عن يمينٍ وشِمالٍ، كُلُوا من رِزقِ ربِّكُمْ واشكُروا لهُ، بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفورٌ فأعرَضُوا فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِمِ، وبدّلناهُمْ بجنَّتَيهِمْ جنّتين ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ ذلك جزيناهُمْ بما كفرُوا، وهلْ نُجازي إلّا الكفور...﴾.

هذه هي الأُقصوصة الثالثة من الأقاصيص التي تضمّنتها سورة سبأ،... وكانت الأُقصوصتان اللّتان سبقتا أُقصوصة سبأ، هما: أُقصوصة داود وأُقصوصة سليمان...

لقد جاءت أُقصوصة سبأ امتداداً لما سبقها من الأقاصيص التي وظّفت لإنارة فكرةٍ خاصّةٍ هي (مفهوم الشكر) للّه تعالىٰ علىٰ معطياته... ويهمّنا من الأُقصوصة بناؤها الفنّي أوّلاً، ثمّ موضوعاتها التي جسّدت مفهومَ (الشكر) أو عدمه...

وأوّل ما يمكن ملاحظته في هذا الميدان هو: أنّ أُقصوصتي داود وسليمان كانتا نموذجين للشخوص الإيجابيّين الذين جسّدوا مفهوم (الشكر) للّه تعالىٰ، حيث ترتّب علىٰ الشكر معطىً ضخم تجاوز ما هو المألوف من المعطيات إلىٰ ما يَنتسِبُ إلىٰ المعجز منها مثل ترجيع الطير لتسبيح داود وإلانته الحديد له، ومثل تسخير الريح لسليمان، وإسالة عين القِطْر له، وتسخير الجنّ...

أمّا أُقصوصة سبأ، فقد جاءت (من حيث العمارة العامّة للأقاصيص الثلاث) نموذجاً مقابلاً للنموذجين السابقين،... جاءت هذه الأُقصوصة نموذجاً للشخوص السلبيّين الذين جسّدوا مفهوم (الكفران) بنعم اللّه تعالىٰ بدلاً من (الشكر)...

إذن : نحن الآن أمام عبارة قصصيّة محكمة ممتعة، تقوم على التقابل بين أجنحتها،...

التقابل بين نماذج تمارس عمليّة (الشكر) لِنِعَمِ اللّه تعالىٰ وبين نماذج تمارس «الكفران» بنعم اللّه تعالىٰ...

التقابل بين المصائر التي انعكست علىٰ الشخوص الإيجابيّين، وبين المصائر التي انعكست علىٰ الشخوص السلبيّين نتيجةً لموقفِ كلٍّ منهما بالنسبة إلىٰ نعم اللّه تعالىٰ.

والآن : لِنرَ الرسم القصصي لهذه النماذج السلبيّة التي كفرت بعطيات اللّه تعالىٰ، وانعكاسات ذلك علىٰ مصائر الشخوص المشار إليهم...

الشخوص أو الأبطال الذين انتخبهم النصّ القرآني الكريم، يمثّلون قبيلة أو طائفة اجتماعيّة يُطلق عليها اسم (سبأ)، ومسكنهم اليَمَن...

أمّا المُعطىٰ أو النعمة التي اغدقها اللّه تعالىٰ علىٰ هؤلاء هي : وجود مزرعتينِ تحتلّان موقعاً جغرافيّاً جميلاً من البلدة بحيث تَشطرانها إلىٰ يمين وشمال،... وعندما يشير النصّ إلىٰ أنّه ﴿كان لسبأ في مسكنهم آية جنّتان عن يمين وشمال﴾ فمعنىٰ ذلك أنّ لهاتين المزرعتين موقعها المهمّ جدّاً... بيد أنّ الأهمّ من ذلك هو : معطيات المزرعتين، حيث وصف ذلك بقوله تعالىٰ ﴿كُلُوا من رزق ربّكم واشكروا له، بلدةٌ طيّبةٌ وربٌّ غفور﴾...

إنّ هذه الفقرة القصصيّة تتضمّن دلالات فنّيّة ضخمة ينبغي أن نقف عند أسرارها الجماليّة...

فأوّلاً : لقد أومأ النصّ إلىٰ عبارة ﴿كلوا من رزق ربّكم﴾ وهذا يعني أنّ الرزق المذكور له أهميّته الكبيرة...

ثانياً : أومأ النصّ إلىٰ عبارة ﴿بلدةٌ طيّبةٌ﴾ ثمّ أردفها بعبارة ﴿وربٌّ غفور﴾،